



المفارقة وجمالياتها في الخطاب الإصلاحى عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

Irony and its aesthetics in the reformist discourse of Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

أ.د/ عيسى طيبي

كلية الآداب واللغات

جامعة أكلي محند أولحاج (البويرة)

Aissataibi71@gmail.com

ط.د/ عمار الغربي*

مخبر قضايا الأدب المغربي
كلية الآداب واللغات

جامعة أكلي محند أولحاج (البويرة)

elgh.omaro@gmail.com

الملخص:

معلومات المقال

يعد أسلوب المفارقة واحدا من أكثر الأساليب البلاغية التي يتخذها الكتاب والشعراء حصنا وملجأ للتنفيس عن مكبوتاتهم والتعبير عما يجيش في خواطرهم، لما يملكه هذا الأسلوب من استراتيجيات فنية تعمل على إخفاء دلالات خاصة وراء المعاني، إما بلفظ أو موقف أو سياق تظهر من خلالها مفارقة الواقع بأسلوب اللاواقع، وقد جعل الإبراهيمي من هذه التقنية الأسلوبية حساما مصلتا في وجه الاحتلال الفرنسي وقلوله لكشف مخططاتهم، كما صور بها رؤيته لواقع الفرد والجمعي بأقل الألفاظ وأغزر المعاني، وهذا من شأنه إثارة المتلقي ودفعه إلى محاولة استكناه دلالات المفارقة وسبر أغوارها والكشف عن تشكيلاتها الفنية، وتهدف هذه الورقة إلى الوقوف على بعض تطبيقات ظاهرة المفارقة وأثرها الجمالي الذي خدم شعرية الخطاب الإصلاحى في نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

تاريخ الارسال:

2024/06/27

تاريخ القبول:

2024/12/09

الكلمات المفتاحية:

- ✓ المفارقة
- ✓ الخطاب
- ✓ الإصلاحى
- ✓ الإبراهيمي

Abstract :

Article info

The method of irony is one of the most powerful rhetorical methods used by writers and poets to vent their repressed feelings and express what is on their minds, because this method possesses artistic strategies that work to hide special connotations behind the meanings, either with a word, a situation, or a context through which the paradox of reality appears. In the style of unreality, Al-Ibrahimi made this stylistic technique a powerful weapon against the French occupation and its remnants to reveal their plans. He also depicted his vision of his individual and collective reality with the fewest words and the most abundant meanings, and this would excite the recipient and push him to try to understand the connotations of paradox, explore its depths, and reveal its artistic formations. This paper aims to identify some applications of the phenomenon of paradox and its aesthetic impact, which served the poetics of the reformist discourse in the prose of Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi.

Received

27/06/2024

Accepted

09/12/2024

Keywords:

- ✓ Irony
- ✓ discourse
- ✓ Reformist
- ✓ Al-Ibrahimi

1. مقدمة

شهد مصطلح المفارقة تطورات عديدة منذ نشأته، وعرف شيوعاً واسعاً في نهاية القرن الثامن عشر أين ارتبط مفهومه "بوجود ألفاظ مخالفة لمعانيها"، ثم توالى الدراسات تباعاً خلال القرن التاسع عشر لتندرج المفارقة ضمن الفنون البلاغية والأساليب الإبداعية، ما جعلها تحظى باهتمام الكثير من الباحثين واللغويين في العصر الحديث.

وانطلاقاً من وظيفة المفارقة التي تجعل المتلقي في حالة من القلق والحيرة التي تنتابه حيال مرامي دلالات القول القائم على المفارقة وما تحمله بين طياتها من تضاد وتناقض، فلا يرتاح المتلقي حتى يشفي غليله من معرفة مقصدية الكاتب.

وبناء على ذلك تحاول هذه الورقة الإجابة عن أهم التساؤلات التي تطرح في هذا المجال، والمتمثلة خصوصاً في: التعرف على ماهية المفارقة، رصد أهم الآليات التي اعتمدها الإبراهيمي في استخدام المفارقة، والكشف عن الدور المميز الذي حققته المفارقة في شعرية كتابات الشيخ الإبراهيمي.

ومعلوم أن النص المفارق ينبثق من رؤية تختمر في ذهن الكاتب تناقض الواقع المعيش الذي يحياه، فيطرح أفكاراً منسجمة في الخارج متناقضة في الداخل، ومنه يتضح أن المفارقة تحتوي على أقطاب لا بد للباحث أن يراعيها في دراسته، أهمها:

01/ مبدع يبني نصه على مفارقة يرسم أبعادها حسب موضوعه وغرضه من الكتابة.

2/ نص مفارق يحوي قصيدة المرسل ويتطلب فطنة المتلقي لكشف التناقضات التي ينطوي عليها النص.

03/ متلق واع مطلع على مرجعيات المبدع وقدراته الأدبية.

أما فيما يخص باحث اختيار الموضوع فهو تحقيق جملة من الأهداف ملخصة في النقاط الآتية:

- تتبع أهم أشكال المفارقة في الخطاب الإصلاحي عند الشيخ الإبراهيمي.

- تسليط الضوء على المسحة الجمالية التي تركتها المفارقة في لغة الشيخ الإبراهيمي، والتي انعكست إيجاباً على انسجام النص من خلال رصف منظم للألفاظ خارجياً وتناقض بين الدلالات في الداخل، وكل هذا أسهم في شعرية لغة الشيخ الإبراهيمي وجعلها تفرض على المتلقي السعي لسبر أغوارها واستكناه دلالتها.

2. المهاد النظري:

1.2 مفهوم المفارقة:.

المفارقة تقنية أسلوبية ورسالة ترميزية، تمنح الألفاظ دلالات جديدة لا تمت بصلة للمعنى الظاهر من الألفاظ، ومن جملة أهدافها جعل المتلقي يقتنع بالتناقض الحاصل في العديد من المواقف وإن استنكره بداية، فالمفارقة "تقوم على استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان من شأنها أن تتفق وتتماثل، أو بتعبير مقابل تقوم على افتراض ضرورة الاتفاق في واقعه الاختلاف" (علي عشري زايد، 2002).

ص: 130)، إن اللغة تحمل على كاهلها مسؤولية تحقيق شروط التلقي، ويصل الأمر بها إلى أن تكون في بعض المناسبات نقيضا مباشرا للمعنى، وهوما عرف بالمفارقة التي تتلخص معانيها في أن وجود المتناقضات جزء من بنية الوجود؛ حيث تعمل المفارقة على كشف الواقع المعيش المليء بالمتناقضات من خلال أسلوب فني قائم على التعارض بين الألفاظ والأفكار والمواقف، وهذا لما تمتلكه المفارقة من قدرة على منح الكلمات دلالات متباينة، حتى " صارت تطلق على نمط من السلوك ينطوي على استعمال اللغة بشكل خادع ثم توسع مدلولها لتعبر عن نظرة للحياة " ينظر (العزام، هاشم، 1424هـ. ص1018).

1.1.2 المفهوم اللغوي للمفارقة:

لغة: ورد في لسان العرب لابن منظور أن الفرق خلاف الجمع:

" الفرق: خلاف الجمع، فرقه يفرضه فرقا ... " (ابن منظور، مادة فرق، ص3397)، فأخذت المفارقة معنى المباينة، ومن أسماء القرآن الكريم "الفرقان" لأنه الحق المبين الذي فرق الله به بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام، وقد أكرم الله سبحانه عباده المتقين بالتأييد والنصر وجعل لهم نورا يفرقون به بين الحق والباطل وحجة بالغة على الكافرين، قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّبِعُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ سورة الأنفال، الآية 29، وكذلك لقب سيدنا عمر رضي الله عنه بالفاروق لتفريقه بين الحق والباطل، ونجد من الباحثين من يجعل مصطلح التفريق للأبدان ومصطلح الافتراق في الكلام.

فالمفارقة عموما تدل على التمييز والتفريق "فرق، الفاء والقاف والراء أصيل صحيح يدل على تمييز وتزييل، والتزييل معناه التفريق. " (أبي الحسي أحمد بن فارس بن زكريا، ص: 493).

2.1.2 المفهوم الاصطلاحي للمفارقة:

تعرف المفارقة بأنها "أسلوب بلاغي يقوم على التضاد، يبرز فيه المعنى الخفي في تضاد ملموس مع المعنى الظاهري، معتمدا على المفارقة اللفظية أو مفارقة الموقف أو السياق، وهو أمر يحتاج إلى مجهود لغوي وكد ذهني وتأمل عميق للوصول إلى التعارض، وكشف دلالاته بين المعنى الظاهر والمعنى الخفي الذي يتضمنه النص وفضاءاته البعيدة" (نعمان عبد السميع متولي، 2014. ص: 14).

وتعرف أيضا على أنها "أسلوب بلاغي عالي التقنية، أساسه عرض وجهتي نظر متعادلتي متعارضتين متضادتين، بين مفهوم عام شائع وآخر ذاتي فكريوكلما اشتد التضاد بينهما برزت المفارقة، مما يضفي الوضوح والإيجاز والجمالية على النص الأدبي عامة" (رقيق كمال، 2016. ص: 65)

وعلى الرغم من عدم استقرار الباحثين على مفهوم واحد جامع مانع، إلا أن أغلب تعريفاتهم اتفقت على عناصر تتلخص فيما يلي:

- المفارقة أسلوب بلاغي يزيد من جمالية النص الأدبي.

- تعمل المفارقة على كسر أفق التوقع للمتلقي، أي تحمل بين طياتها مالا يتوقعه القارئ في الوهلة الأولى.

- تعتمد لغة المفارقة أسلوب التناقض والتضاد.
- تحدث للمتلقي شيئا من القلق المصاحب للدهشة التي تدفعه لفك شفراتها والكشف عن أسرارها.
- أسلوب المفارقة يدل على قدرة المبدع ومكنته اللغوية، فالمفارقة في الكتابات الأدبية تصدر من ذهن متوقد على دراية بما يدور حوله.
- من صفات المفارقة اتساع مجال دلالاتها، واكتنازها بعدد المعاني والإيحاءات، ما ينجم عنه تباين الاستجابة والتفسير من لدن المتلقي.
- تضمن المفارقة تفاعلا بين عناصر التواصل: المرسل، الرسالة، المستقبل.
- تختلف المفارقة في تأثيرها بين قارئ وآخر، كما تختلف من زمان إلى زمان آخر.

2.2 مبادئ المفارقة:

- تقوم المفارقة على مبادئ تضمن نجاح هذه الظاهرة اللغوية من خلال أداء رسالتها وتحقيق أهدافها، تتلخص فيما يلي:
- مبدأ الاقتصاد: أي إحداث أبلغ الأثر بأقل العبارات.
 - مبدأ التضاد: كلما كان الأمر غير محتمل الحدوث كلما زاد أثر المفارقة.
 - الموضوع: هناك مواضيع تبعث على المفارقة وتشحذها أكثر من غيرها، لما تتوفر عليه من صدى عاطفي كبير مثل: مجالات الدين والأخلاق والحب...، وهذا راجع أيضا لما تمتلكه هذه المجالات من عناصر متضادة- فيما يجب أن يكون وما هو واقع-: كالخير والشر والعقل والعاطفة....

3. تجليات ظاهرة المفارقة في كتابات الإبراهيمي وأثرها الجمالي:

المفارقة ظاهرة شائعة عند الأدباء قديما وحديثا، يجعلون منها وسيلة آمنة للتعبير عن أفكارهم والتنفيس عن مكبوتاتهم بأسلوب يقوم على اجتماع المتضادات والتناقض الحاصل بين الحقيقة والمظهر، وقد اعتمد الشيخ الإبراهيمي هذا الأسلوب في الكثير من نصوصه الإصلاحية وبأساليب متنوعة لكشف المستور من حيل الاستعمار الفرنسي وأعوانه. وكذا لبيان حال الأمة الجزائرية في ريق الاستعمار مسلحا بقدرة لغوية عالية، ومن أشهر أساليب المفارقة التي اعتمدها الإبراهيمي في كتاباته هو أسلوب السخرية من الاحتلال الفرنسي وأتباعه، وكذا تنويعه في استخدام الأشكال اللغوية التي توحى بالمفارقة كالتطابق والمقابلة، كما نجد توظيف أدوات لغوية تساعد المتلقي لاكتشاف المفارقة، ومنها "إن الشرطية، لكن الاستدراكية، إذ الفجائية، إلا الاستثنائية. وسنسلط الضوء في ورقتنا هذه على نماذج من أسلوب المفارقة وما تركته من أثر جمالي في كتابات الشيخ الإبراهيمي، ومن أهم ذلك:

1.3 المفارقة من خلال أسلوب السخرية والتهكم:

السخرية أسلوب للتعبير يحمل معنى الاستهزاء والتهكم والاحتقار، وتعد سمة بارزة في كتابات الإبراهيمي التي تحمل معنى المفارقة.

وقد تعددت المفاهيم التي قدمت للسخرية سواء عند العرب أو عند الغربيين، إلا أنه حدث الاتفاق حول المبدأ الذي تبنى عليه من حيث أنها تتشكل في صيغة مفارقة بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي/الانزياحي" (حمو الحاج ذهبية، 2013ص: 17)

وتعرف السخرية على أنها: لغة: مشتقة من الفعل سخر: "السين والحاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستدلال." (معجم مقاييس اللغة. ص: 144)، فالمفارقة تتولد عن السخرية وتستند عليها، وتتجلى ظاهرة السخرية ضمن خطابات الإبراهيمي الثرية من خلال أسلوبها المميز و الذي يهدف من خلالها لترسيخ المنطلقات الإصلاحية وإرسائها، ويعد التهكم من أبرز أساليب السخرية وأشدها وقعا، لأنه إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال لأجل الاستهزاء بالمخاطب، وقد ورد أسلوب التهكم في القرآن الكريم في عدة مواضع سخرية من الكافرين وتوبيخا لهم واستهزاءهم، منها قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ سورة الدخان، الآية 49، وقوله سبحانه ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ سورة ص، الآية 10، ويعرف التهكم بأنه "لون من ألوان البديع يعبر فيه بعبارة يقصد بها ضد معناها للاستهزاء والسخرية" (نعمان عبد السميع متولي، 2014. ص: 63)، وتبرز استعمالات التهكم في العديد من الأساليب، أكثرها شيوعا "الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، و المدح في معرض الاستهزاء" (ابن أبي الأصبع المصري،. ص: 568)،

ومن أمثلة نصوص المفارقة ذات طابع السخرية والتهكم التي بثها الشيخ الإبراهيمي ضمن كتاباته الإصلاحية نذكر:

1.1.3 الإتيان بلفظ البشارة والمقصود بها الإنذار:

ومن هنا قول الإبراهيمي - في كتاب مفتوح موجه للأعضاء المسلمين بالمجلس الجزائري المعينين من طرف الحكومة الفرنسية - "ومادامت الانتخابات بالعصي فأبشروا بطول البقاء في هذه الكراسي" (الإبراهيمي، ج3، 1997. ص: 185).

فالإبراهيمي يهزأ بخصومه موظفا مصطلح البشارة استهتارا بهم، موضحا أنهم لم ينتخبوا بطريقة شرعية، وإنما استولوا على المناصب بالقوة واغتصبوها عنوة، وهنا تنتقل الألفاظ من سياقها المعروف إلى سياق مناقض لها، وفي سياق آخر يشير الاحتلال الفرنسي وفلوله بأن القوانين التي صاغوها لخدمتهم ستخذلهم، وأن الله سبحانه أعمى بصيرتهم فلم يوظفوا هذه القوانين لمصلحتهم في القضاء على الجمعية، مخبرا عن ذلك بقوله "وطمس الله على قلوب الاستعمار وأعوانه فلم يحاربونا بالأسلحة القاتلة من القوانين، وكانت منها بقية في أيديهم إذ ذاك، وإنما عمدوا في حربنا إلى وسائل كانت كلها جارية في مصلحتنا وقاضية عليهم، فقد رأوا أن يقيموا جمعية ضارا لجمعيتنا" (الإبراهيمي، ج05، 1997. ص: 147)، وتظهر المفارقة في غفلة الاحتلال عن استخدام تلك القوانين في وقتها وهم من سعى لتأسيسها وفق ما يخدم مصالحهم في حربهم على جمعية العلماء المسلمين، وكيف أن هذه القوانين مرت بردا وسلاما في حين أن الاستعمار اجتهد في القضاء على الجمعية، فيسخر الإبراهيمي من حال الاستعمار وقوانينه الجائرة التي لم تسعفهم.

2.1.3 إظهار الكلام في ألفاظ المدح و القصد من ذلك الدم والاستهزاء:

وهو لون من ألوان السخرية والتهكم، وظفه الإبراهيمي مازجا بين الكشف عن غضب دفين وبراعة التصوير، إنها نفثة مصدور تجلت في انتقائه ألفاظا ظاهرها المدح مضمرها الدم و التهكم، من خلال عدة عناوين ذكر منها: إبليس ينهى المنكر، إبليس يأمر بالمعروف، ذكرونا بالعدل فإننا قد نسيناه، فإبليس الذي لا يسعى إلا للأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وصفه الإبراهيمي في هذا العنوان بعكس حقيقته وهذه قمة المفارقة، فعتبة العنوان تعد مفارقة بامتياز، أين "يتحول النص عبر المفارقة من واقع حقيقي معيش إلى واقع لغوي يفصح ويعري ويغمز ويتهمك، فيصير الواقعي كأنه أسطوري لا معقول أو يصير اللامعقول الأسطوري واقعا" (بسام موسى قطوس، 2001. ص: 83).

والمقصود بإبليس في هاته العناوين "أحد تلامذة المدرسة الاستعمارية"، ومن جملة ما يقول فيه الإبراهيمي أن هذا التلميذ "من تلامذة المدرسة الاستعمارية النجباء المقدمين، تلميذ بالمغرب الأقصى قفز قناطر الامتحان بخطوة، وغبر في وجوه أساتذته بلهوة، وقطع أسئلته المتنوعة الكثيرة بهذه الجملة القصيرة " أنا روح الاستعمار وسره وحقيقته المشخصة... " (محمد البشير الإبراهيمي، 1997، ج3. ص: 415)

لجأ الإبراهيمي للتهكم باستخدام عناوين يظهر من خلالها المدح المراد به الدم في دلالة تهكمية مختصرة معتصرة، فبمجرد ذكر عدونا إبليس الرجيم تتبادر إلى الأذهان أن كل ما ينسب إلى إبليس الخسران والذلة والصغار في الدارين وأن كل ما يدعوا إليه الباطل وما يغضب الرحمان.

3.1.3 الشماتة بخصوصه والاستهزاء بهم:

والمقصود بالشماتة "إظهار المسرة بمن نالته محنة، أو أصابته نكبة" (ابن أبي الأصبع المصري، دس. ص: 567).

نقرأ ذلك في نص الإبراهيمي وهو يشمت بالعلماء الذين باعوا دينهم بعرض من الحياة الدنيا، يقول الإبراهيمي "ومعنى النكاية في رجال الدين الذين راضهم الاستعمار على السمع والطاعة له حتى أصبحوا جواسيس وتنكروا لقومهم وجامعتهم، وخانوا أمانة الإسلام" (الإبراهيمي، 1997، ج05، ص: 217)، فالإبراهيمي يبدي غضبه من الذين باعوا دينهم بعرض من الحياة الدنيا فهانوا وخسروا، وهنا تبدوا مفارقة من نوع خاص بدل أن يكون علماء الدين نصرة لدين الحق -الإسلام - غدو نقيض ذلك، وهؤلاء الذين يدعون العلم ليسوا فقط من معاصري الشيخ الإبراهيمي بل ظهوروا جليا في عقود سابقة وامتدت آثار أعمالهم إلى عهده، يوضح الشيخ الإبراهيمي هذه الفئة مطلقا عليهم تسمية علماء الخلف قائلا "نعني بعلماء الخلف هذه العصابة التي نشهد آثارها ونسمع أخبارها، ونحددنا تحديدًا زمنيًا بمبدأ المئة العاشرة للهجرة من يوم بدأت الشعوب الإسلامية بالتفكك والانحيار، ولم يظهر هؤلاء العلماء أثر في دفع البلاء قبل إعضاله بل كانوا أعوانا له وكانوا بعض أسبابه" (الإبراهيمي، 1997، ج04، ص: 114)، ونقرأ نص الإبراهيمي متحدًا عنهم في مقال آخر مخبرا عن حال علماء الإسلام في الشرق والغرب في زمنه مشددا عليهم مستهترا بهم يقول "لم يقوموا بحق الله في

عباده، فأصبحوا أضحوكا بين عباده، وكساهم الله ثوب عز فضوه فأذلهم >> ومن يهن الله فما له من مكرم << (الإبراهيمي، ج3، 1997. ص: 419)، فالإبراهيمي يغضب من حال بعض العلماء المسلمين الذين أهملوا حق الله عليهم ولم ينتصروا لدينهم، فكان مصيرهم الذلة والهوان بدل العلو والعزة التي كتبها الله لعباده المسلمين المتمسكين بدينه، قال الله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ سورة آل عمران، الآية 139، والمفارقة هنا في كونهم يدعون العلم والنسبة للإسلام ثم يصدر منهم ما يناقض ذلك، فتستبدل نتيجة لذلك: العزة ذلة والعلو سفلا.

والإبراهيمي لا يشمت من أجل الاستهزاء، وإنما من أجل النصيح والإرشاد وتبيان الحق حتى يرجع المسلمون إلى دينهم الحق، لأن في إخلاص العبودية لله تعالى والتمسك بتعاليم دينه - دين الإسلام - مصدر عزتهم وقوتهم وسعادتهم في الدارين، ونجد الإبراهيمي يفضح أعمال شخص من أتباع الاستعمار الفرنسي خادم لمصالح الاحتلال ويدعي أنه عالم من المسلمين وعمله مناف لذلك، يقول الإبراهيمي في هذا الصدد " قام هذا الرجل التهامي الذي ليس له من تهماة ولا كرامة بأخبث ما تقوم به صنعة استعمارية في أرض الله، وتسامى إلى مقام ينحط عنه أمثاله من الآلات البشرية الرخيصة، وتطاول إلى أفق من يتطاول إليه يجد له شهابا رصدا، وإننا لا ندري من أي حاله نعجب: أمن تطاوله ذاك وأين السمك من السماك؟ أم من مجيئه في مقام واحد بنقيضين، تلعن إحداها الأخرى؟ فقد أظهر نفسه في الأولى فاتكا جريئا، وفي الثانية ناسكا بريئا، فشهدت الثتان بأنه آفك مبطل في الثنتين " (الإبراهيمي، 1997. ج3، ص: 416).

4.1.3 باب الهزل المراد به الجد:

نجد ذلك في عدة مواطن من كتابات الشيخ الإبراهيمي، نذكر منها مقال بعنوان: "في كل ناد أثر من ثعلبة"، قوله: "وثعلبة في حديثنا اليوم - هو روح لا شخص، هو روح من الأرواح الخبيثة... أما الروح فهي الاستعمار الذي أصبح كالسل في الملازمة والتعاصي عن الطب... هم فئة استفزها الشيطان بصوته، فنزحها من الإيمان والشرف، فأعطت قيادها للشهوات والمطامع. فقادت إلى الاستعمار، فكانت حظه منا، وكأن الله قال للاستعمار ما قال للشيطان في قول الله تعالى >> وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم << (الإبراهيمي، ج3، 1997، ص: 381).

فجعل خصومه في صف واحد مع الاستعمار وأتباعا للشيطان، وعمل الاحتلال الفرنسي هو عمل الشيطان الرجيم فهو يعدمهم ويمنيهم وما يعدمهم الشيطان إلا غرورا وما يمنيهم إلا بهتانا وزورا.

وفي مقال آخر يستهزئ الشيخ الإبراهيمي من أحد خصومه قائلاً "لم يفت هذا المخلوق العجيب إلا أن يدخل أحد مساجد مراکش، فيصعد المنبر في يوم جمعة ويخطب ويتباكى كما يتباكى بعض الناس عندنا... " (الإبراهيمي، 1997، ج3، ص: 417). فالإبراهيمي يسخر من خصومه بأسلوب فكاхи ولكن مقصده الجدل، لأن قضايا دين الإسلام خط أحمر يمنع تجاوزه ومحارم لا يجوز انتهاكها.

ويسخر الإبراهيمي من الأشخاص المعادين للجمعية الموالين للاحتلال الفرنسي الذين لا يؤمن جانبهم، والذين لا يتوانون في نفث سمومهم على القضايا الإصلاحية للجمعية، من أمثال: الزاهري والعاصمي وماكان على شاكلتهم في القول والعمل، ويقدم الإبراهيمي لهم

دروسا، ويبين فيه حالهم ويعري حقيقتهم، وأنهم يظهرون خلاف ما يظنون، فنقرأ سخرية الإبراهيمي من الزاهري في مقال بعنوان: " إلى الزاهري " محدثا ومعبرا عن عديد المفارقات التي تصدر من هذا الشخص، منها قول الإبراهيمي: " لو كنت وحدك... تكتب بقلمك، وتقول بلسانك، وتعبر عن فكرك، لأوليناك جانب الإهمال وسكتنا عنك طول العمر كما سكتنا عنك في ماضيك القريب وفي ماضيك البعيد احتقارا لشأنك، أو استهانة بما أهان الله منك، وربما عذرنك في مجانبتك للصدق بأنك لا تعرفه، وإنما يؤاخذ الإنسان بترك ما عرف، وربما أثينا عليك بالوفاء للصاحب الذي صاحبك منذ عقلت التمام، وهو الكذب، وباستقامتك على الجبل التي جبلت عليها، وهي الشر، وبالموهبة التي خصصت بها وهي البراعة في قلب الحقائق، وربما رحمتك من هذه النار التي تصلاها وهي نار الحقد..." (الإبراهيمي، ج3، 1987. ص: 558).

ويضيف الإبراهيمي شامتا مستهترا من الزاهري وذوقه في مفارقة تتناص مع التراث الشعري نقرأ قول الإبراهيمي في هذا الصدد " وهنيئا لك هذا الذوق اللطيف في أخذك بأحد بيتي ابن الرومي في الحقد، وهي قوله:

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجيا ينتمين إلى بعض

وتركك للبيت الثاني: وهو قوله:

فحين ترى حقدا على ذي إساءة فثم ترى شكرا على أحسن القرض.... (الإبراهيمي، ج3، 1997. ص: 558)

فالإبراهيمي يسخر من ذوق الزاهري، ويقصد بالذوق اللطيف الذوق المبتذل، وأنه اختار من البيتين ما يناسب طبعه وينم عن دواخله وهو الحقد بدل الشكر، يشرح الإبراهيمي ذلك قائلا: " فلم تقصر حقدك على من أساء إليك، ولم تشكر من أقرضك القرض الحسن، واسترحت من حيث تعب الكرام" (الإبراهيمي، ج3، 1997، ص: 558).

إن استخدام ظاهرة المفارقة في الحكم على هؤلاء الأشخاص الموالين للاستعمار الفرنسي مكن الكاتب من فضح دسائس هؤلاء الأشخاص بأسلوب شيق ينم عن شعرية بارزة، فأظهر شخص الزاهري بأنه شخص مخادع يخادع نفسه ويسعى لخداع الآخرين على الرغم من أن كلامه نفسه يفضح، فجعل الإبراهيمي من هذا الشخص موضع سخرية واستهزاء، وهذا من أقوى تقنيات المفارقة التي لا تتستر على النقص وتداريه، بل تفضح الاعوجاج وترغمه على الظهور بصراحة وخشونة لكي يعترف المعوج بضعفه. (نوال بن صالح، 2012، ص: 82).

ويسخر الإبراهيمي من الاستعمار الغاشم وظلمه المسلط على الشعب الجزائري الأعزل؛ إذ طال حتى مفهوم الكلمات المتعارف عليها في اللغة في مقال موسوم بعنوان " كلمات مظلومة"، من ضمن ما جاء فيه: " المقاديم عند العرب جمع مقدم، وهو الذي يقدم على العظام، والشاهد قول شاعرهم: مقاديم وصالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمان

أما عندنا فالمقاديم جمع مقدم -يطلق على المسؤول في شؤون الزاوية-، على غير قياس في اللفظ والمعنى. " (محمد البشير الإبراهيمي، ج3، 1987، ص: 505).

وهذا الأسلوب الهزلي يتفاعل معه المتلقي، ويدرك ما ينطوي عليه من انتقاد أو مقترح لحل المشاكل، ويضفي ذلك مسحة جمالية على كتابات الإبراهيمي وتأثيرا في نفس المتلقي، يتجلى ذلك في العديد من خطابات الإبراهيمي الإصلاحية الثرية و حتى الشعرية، نذكر في الجانب الشعري "رواية الثلاثة"، وهي أرجوزة هزلية ساخرة، يتهمكم الكاتب من خلالها بأسلوب فكاهي ساخر وهذا مشهور في كتابات الإبراهيمي.

فالإبراهيمي من خلال أسلوب ساخر هزلي يفضح حقيقة الموالين للاستعمار المعادين للدين ويظهر مفارقة مميزة بارزة بأقل المفردات وأكثر المعاني، محملة بأفكار ظاهرة وأخرى باطنة تحتاج إلى إمعان نظر وطول تأمل وقدرة على التحليل.

2.3 المفارقة باستخدام أسلوبي الطباق والمقابلة:

1.2.3 المفارقة باستخدام الطباق:

تتجلى المفارقة بصورة كبيرة من خلال توظيف بعض أشكال المحسنات البديعية كالطباق والمقابلة، وتعرف المقابلة في الدراسات البلاغية على أنها "ترتيب الكلام على ما يجب فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخرا، ويأتي بالموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه، وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة" (ابن رشيق القيرواني . ص: 215).

ويعمل عنصر الطباق على الجمع بين اللفظ ونقيضه، وهذا من شأنه تأدية دور بارز للمفارقة اللغوية، أين تتسع الهوة بين مفردتين ليحصل التنقل من حال إلى حال آخر نقيض له، نلمس ذلك في كثير من مقالات الشيخ الإبراهيمي، منها خطبة "موالاة المستعمر خروج عن الإسلام" ومقال "عبد الحي الكتاني" ومقال "أثر الصوم على النفوس"، نقرأ مثالا قول الإبراهيمي مخبرا عن مجلة أنشأت بمباركة الاستعمار الفرنسي، وسمت نفسها صوت المسجد كذبا وزورا وليس لها أي حظ من هذا الاسم، يقول في حقها الإبراهيمي: "ولا نشك في أن مآل هذا الصوت هو مآل تلك الأصوات التي لم ترتفع إلا لتخفض، ولم تتعال إلا لتتسفل" (محمد البشير الإبراهيمي، 1997. ص: 277).

ويظهر الإبراهيمي هذه المفارقة بكلمات قلائل يفضح من خلالها ما تبيته المجلة من خبث وكيف أن فعلها مناف لاسمها، لأن صوت المسجد "في حقيقته وقديسيته هو صوت الحق صريحا غير مجمم واضحا غير مبهم مبينا غير ملتبس" (محمد البشير الإبراهيمي، ج2، 1997. ص: 277).

وفي مقال آخر يوجه الإبراهيمي خطابا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية خلال زيارته للجزائر، من ضمن ما جاء فيه "إنكم أقمتم في الجزائر في عهدها الأخير عامين، وأحطتم رؤية وعلمنا بما يجري فيها وإنها باقية حيث تركتموها، ما تقدمت إلا في التأخر، وما ترقى إلا في الانحطاط" (الإبراهيمي، ج3، 1997. ص: 94).

فطابق الإيجاب الحاصل بين لفظتي التقدم والتأخر وبين الانحطاط والترقي أحدث مفارقة بارزة، تدعو المخاطب لعدم الاغترار بما هو شائع من مغالطات تسوق لها الحكومة الفرنسية بالجزائر، فيفصح فيها الإبراهيمي الحكومة الجزائرية الموظفة من طرف فرنسا، لأنها تكيل بمكيال الاحتلال وتعمل لمصلحه، فهذا الخطاب الموجز كاف ليبين للشعب الجزائري حال الحكومة الجزائرية المعينة من طرف الحكومة الفرنسية، والفرق بين ما تظهره هذه الحكومة وما هو حاصل حقا، وبأقل المرادفات وأيسر الأساليب وأوجز العبارات وأبلغ المعاني، لاحتوائها على تلك المفارقة التي تفهم ببساطة، ومن دون حاجة لكثرة تدبر ولا طول تأمل، وهذا من عمل المفارقة، التي "تتجاوز حدود اللفظة وشد الانتباه إلى إيجاد التوتر الدلالي عبر التضاد في الأشياء، الذي قد لا يتولد فقط من خلال الكلمات المثيرة في السياق، بل عبر امكانات الشاعر أو الأديب البارعة في توظيف مفردات اللغة العادية واليومية، وكلما اشتد التضاد ازدادت حدة المفارقة في النص". ينظر (نعمان عبد السميع متولي ، ص: 14)

كما تظهر المفارقة من خلال توظيف الطباق لخدمة أسلوب السخرية والتهكم، ومن ذلك قول البشير الإبراهيمي "للسياسة في جميع بلاد الله وعند جميع خلقه معنى محدود قار في حيز من الإدراك، إلا في هذا البلد وعند حكومته الاستعمارية وساستة المقلدين فإن معناها غير محدود ولا مستقر، يتسع إلى أقصى حدود الاتساع فيحمل ما قارب وما باعد، وما جانس وما خالف وما اطرده وما شذ... ("محمد البشير الإبراهيمي، 1997. ص: 59)؛ فالألفاظ المتضادة القائمة على الطباق على شكلين: طباق السلب محدود وغير محدود / قار لا مستقر، وطباق الإيجاب : قارب ، باعد / جانس ، خالف / اطرده شذ.

هذه المتنافرات شكلت المفارقة اللفظية وعمقت المعنى وأصلت الفكرة وأبانت عن مكنة الكاتب في توصيل أفكاره وإقناع المتلقي بأسلوب ساخر يكشف فيه سياسة المستعمر الغاشم لضمان التفاعل بين النص والمتلقي، و"يخطئ من يظن أن للمفارقة اللغوية قياسا تقاس به، أو ميزانا يقدر ارتفاع حرارتها أو انخفاضها، المقياس الوحيد المتلقي، ومدى قدرته وثقافته وتفتح ذهنه، هو الزئبق الوحيد القادر على كشف المفارقة ومعرفة أبعادها وما تحمل في طياتها من متناقضات" (نعمان عبد السميع متولي، ص: 122).

2.2.3 المفارقة باستخدام أسلوب المقابلة:

تعد المقابلة من المحسنات البديعية التي تزيد من جمال اللفظ وتقوي معاني الكلام، فتتواشج الألفاظ بالمعاني محدثة للنص انسجامه واتساقه، " وهي نوع من الطباق نوع يخص باسم المقابلة، وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب" (أحمد مصطفى المراغي ، 2000. ص: 322).

يتحدث الإبراهيمي عن عبد الحي الكتاني الذي هو من أحد المعادين للإصلاح قائلا: "وإذا أنصفنا الرجل قلنا إنه مجموعة من العناصر منها العلم ومنها الظلم ومنها الحق ومنها الباطل، وأكثر الشر والفساد في الأرض" (محمد البشير الإبراهيمي، 1997. ص: 530)، وتظهر المفارقة من خلال اجتماع العلم بالظلم والحق بالباطل، فبمجرد قوله أكثر الشر والفساد فقد ذمه وفضحه، وإن أفصح بأن له علما وشيئا من الحق، إلا أن هذا الحق لم يردعه عن إثبات الباطل، و علمه لم ينفعه في الالتزام بالحق، فكانت النتيجة الإفساد في الأرض.

وتتجلى أيضا مفارقة لفظية ساخرة بأسلوب هزلي منها قول الإبراهيمي عن خصمه الزاهري: " كتبت أيها الشيخ الكثير من الباطل، وسنكتب قليلا من الحق ولكن قليلنا لا يقال له قليل" (محمد البشير الإبراهيمي، 1997. ص: 558).

يظهر من خلال هذا القول سخرية الشيخ الإبراهيمي من خصمه بتوظيف أسلوب تصارع الأضداد، والغرض من استخدام المتناقضات تكثيف فكرة أن الإبراهيمي مؤيد للحق وأن خصمه الزاهري على الباطل، وأن الحق غالب وليس مغلوب، فتتداعى الأفكار في ذهن المتلقي من خلال المفارقة التي تذكّنها المطابقة والمقابلة لأحدهما يؤديان إلى رفع مستوى المفارقة وشنن معانيها، فالضد والمقابل يجلب إلى ذهن ضده ومقابله، وهذا من شأنه تثمين النص الأدبي والرقى به إلى مصاف الإبداع.

4. خاتمة

إن الخطاب الإصلاحي - شعره ونثره - في عالمنا الإسلامي مجال رحب للتأمل والإبداع والتقصي والإمتاع، لما يتضمنه من طاقات لغوية عالية وأفكار نيرة سامية تتجاوز المعنى السطحي إلى المعنى العميق بأسلوب منسجم ولغة راقية، لأنه ينهل من معين الوحيين: كلام الله - القرآن الكريم - والسنة النبوية المطهرة، ما يجعل الخطاب الإصلاحي يحوي بين جنباته مختلف الأساليب اللغوية ومن ضمنها ظاهرة المفارقة التي حظيت باهتمام العديد من الباحثين والنقاد، بوصفها واحدة من أهم الأساليب التي يعتمد عليها الأدباء للتعبير عن أفكارهم بطريقة غير مباشرة وبأسلوب فني ساخر يعبر عن نظرهم للحياة، غير أن الجهود العربية في هذا المجال ما تزال محدودة نظرياً وتطبيقاً، على الرغم من التطور المتسارع لمفهوم المفارقة وأشكالها، لذا فالجهد رحب للتوسع في دراسة هذه الظاهرة وسبر أغوارها والكشف عن مكوناتها. وفي هذه الورقة تسليط الضوء على بعض جماليات أسلوب المفارقة في واحد من الخطابات الإصلاحية الراقية لغة وأسلوباً لصاحبها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وتفتح باباً واسعاً لمزيد من التقصي والتعمق، كما خلصت إلى جملة من النتائج أهمها:

- ظاهرة المفارقة تبني على تصادم دلالات مشتقة من الدال الواحد، دلالات تنسجم في اللاواقع وتتعارض في الواقع.
- اتخذ الإبراهيمي من أسلوب المفارقة سلاحاً حاداً مصلياً في وجه المستعمر وأعوانه الذين يعملون على مغالطة الأمة الجزائرية وطمس هويتها.

- يمكن أسلوب المفارقة المبدع من طرح أفكاره وشهادته على الواقع بأقل الألفاظ وأغزر المعاني.
- المفارقة تجعل للدال الواحد مدلولات عدة ما من شأنه إثراء النص وافتتاحه للتأويل والتحليل.
- أظهر الإبراهيمي من خلال أسلوب المفارقة بأن المخادع يخادع نفسه وهو لا يشعر لاعتقاده بأنه شخص ذكي متفوق وهو في الحقيقة مكشوف مفضوح، وفي هذا لمسة شعرية تكمن في جمالية الإيجاء، وملخصها أن سلاح الظالم موجه صوبه وهو لا يدري.
- الكاتب واع بأشكال المفارقة ويوجه القارئ لاكتشافها.
- جعل الإبراهيمي من هذه التقنية الأسلوبية أداة آمنة يحارب بها الاحتلال الفرنسي في ظل التضييق الممارس عليه من قبل المحتل الغاشم.
- تعمل ظاهرة المفارقة على كسر أفق الانتظار لدى المتلقي، وتبعث في أنفسهم ثورات تجعله في تفاعل حيوي مع النص، وهذا من شأنه أن يلقي بظلال الشعرية في كتابات الأديب.
- نجحت المفارقة التي وظفها الكاتب في إحداث الدهشة للمتلقي وإضفاء جماليات على الخطاب الإصلاحي في كتابات الشيخ الإبراهيمي، وتبرز هذه الجماليات بالخصوص من خلال كسر أفق التوقع، وجعل المتلقي في رحله بحث عن المغزى المراد من قول الكاتب، وكلما زادت درجة انزياح الألفاظ عن دلالاتها المباشرة كلما اتسعت مساحة الشعرية.
- الخطاب الإصلاحي مع كونه خطاباً هادفاً وبناءً فهو أيضاً مكتنز بأشكال الإبداع وأساليب الإمتاع.

قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- محمد البشير الإبراهيمي، (1997). آثار الشيخ الإبراهيمي، ج2، ج3، ج4، ج5، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- زايد ، علي عشري. (2002). بناء القصيدة العربية الحديثة. القاهرة: مكتبة ابن سينا.
- ابن منظور. (2002). لسان العرب. القاهرة: دار المعارف.
- أحمد بن فارس بن زكريا. (2002). بناء القصيدة العربية الحديثة. القاهرة: دار الفكر.
- متولي، نعمان عبد السميع. (2014). المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم - دراسة تطبيقية- القاهرة: دار العلم والإيمان.
- بن فارس، أبي الحسين أحمد. (د س). معجم مقاييس اللغة. الجمهورية العربية المتحدة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- قطوس، بسام موسى. (2001). سيمياء العنوان. الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة.
- القيرواني، ابن رشيقي. (2001). العمدة. الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة.
- المراغي، أحمد مصطفى. (1993). علوم البلاغة البيان و المعاني والبديع، بيروت ، دار الكتب العلمية.
- المصري، ابن أبي الإصبع. (د س). تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، الجمهورية العربية المتحدة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

• الأطروحات:

- بن صالح، نوال. (2012). خطاب المفارقة في الأمثال العربية - مجمع الأمثال للميداني أنموذجا. الاختصاص: النقد الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة.

• المقالات:

- العزام، هاشم ، (2003). "المفارقة في رسالة التوابع والزوابع دراسة نصية ". مجلة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، المجلد 16، العدد 28، ص 10-18.
- حمو الحاج، ذهبية. (2013). "البعد التداولي للسخرية في الخطاب القصصي الجزائري ". مجلة الأثر، العدد 17، ص 17-29.
- رقيق، كمال. (2016). "المفارقة بين المفهوم والاصطلاح ". مجلة التعليمية، المجلد 03، العدد 08، ص 59-67.